الفصل الخامس

جسد المرأة الفلسطينية: ما بين البطريكية والكولونيالية

شهد وادي

«لتكن البداية لا من قارة، من بلد أو بيت، بل من الجغرافيا الأقرب إلينا - الجسد».

أدريان ريتش

سأتناول في هذا البحث الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي، دون الدخول في تعداد ما يملكه كلّ طرفٍ من قنابل، أو صواريخ، أو ما يقيمه الاحتلال من حواجز. ولن أتطرّق لدراسة جدار الفصل العنصري أو «اتفاقيات السلام»، بل سأتناول الصراع من ناحية سياسية/ جغرافية أقرب وأكثر مركزية: الجسد. فأتساءل هنا: ما هو الموقع الذي «تحتله» أجساد النساء الفلسطينيات في هذا الصراع؟

إن أجساد النساء الفلسطينيات تُرمَّز وتُقرأ سياسياً، ثقافياً واجتماعياً، بطرق مختلفة، وأنا أتطلّع في هذه الدراسة إلى بحث العلاقة ما بين الوعي السياسي، ومكانة هذه الأجساد. أو بالأحرى، فإنني أطرح التساؤل عن تأثير المشاركة/ المقاومة السياسية ضد الاحتلال على جنسوية الفلسطينيات، خاصةً في مجتمع يؤمن بأفكار مثل «ثقافة العَرْض».

فأجساد الفلسطينيات هي أشبه بساحة معركة تُجرى عليها أشكال الصراع ما بين القوة الذكورية داخل مجتمعهن، وقوة الاحتلال. فالخطاب الوطني الفلسطيني البطريركي يجعل من هذه الأجساد سلاحاً يتمّ استخدامه

ضد العدو، وفي الوقت نفسه ضدّ النساء أنفسهن . بالمقابل، على الرغم من خطورة استخدام صيغة المفرد عند التحدث عن النساء الفلسطينيات وما قد يترتب عليه ذلك من الإشارة إلى النساء كنموذج واحد، فإنني أرتأيت استخدام المفرد، لأسباب خاصة بجماليات اللغة العربية.

تحاول إسرائيل استخدام هذه الأجساد للتحكم بالشعب الفلسطيني بأكمله . أما الفلسطينيات فإنهنّ يلجأن إلى هذه الأجساد لمقاومة مجتمعهن الذكوري من ناحية، ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي من ناحية أخرى.

وأطمح من خلال هذا البحث إلى القيام بعملية «تشريح سياسي»، مستندة إلى فرضية تقوم على أن أجساد النساء الفلسطينيات هي «ساحة معركة»، تمارس عليها، أو من خلالها «السلطة السياسية» في الصراع . فالحديث عن الجسد يعني، بالتالي تحليل الوضع الاجتماعي، الثقافي والسياسي، للنساء الفلسطينيات، بل يعني، أيضًا دراسة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بحد ذاته.

فأتساءل: هل تظهر أجساد الفلسطينيات في هذا الصراع كسلاح، كساحة للمعركة، وكهدف؟ بل أتساءل أيضاً: من يملك هذا السلاح وهذه الساحة وهذا الهدف، وضد مَن يُستخدم؟

فلسطين بالمؤنث: الجسد في الخطاب الوطني الفلسطيني

في الخطاب الوطني الفلسطيني تلقب قوات الاحتلال بـ«المغتصِبين». المغتصبون أصبحت كلمة مرادفة للمحتل في السياق الفلسطيني، فـ«هم» يغتصِبون الأرض، وبذلك فإن فلسطين/ الأرض/ الشعب هي امرأة، وبالأغلب هي أمّ للجميع. فكرة الترميز إلى فلسطين كامرأة ليست محتكرة على الخطاب السياسي، بل أيضاً، موجودة في الخطاب الثقافي الأدبي.

كما تؤكد حنان عشراوي: «تجد النساء طرقاً نهن إلى الأدب ليس عبر صورتهن

الحقيقية، بل عبر تمثيل الهدف المثالي الذي لم يتحقق: الخصوبة، الأرض الخضراء، رحم المجتمع، بل وفلسطين ذاتها»[1]. تأنيث الأرض، يجعل منها امرأة مثالية وإلهية، وفي المثال الفلسطيني «هي» ما تزال ضحية اغتصاب واحتلال.

العلاقة الرمزية بين فلسطين والمرأة تتمركز في الرغبة بامتلاك الأرض والمرأة، فكما تفترض ماري ليون، هناك عقبة أمام تحقيق الإنجاز الوطني بامتلاك المرأة/ الأرض، فبما أن الأرض/ المرأة محتلة، هناك دائماً أمل في إشباع الرغبة الوطنية، والجنسية[2].

بالنسبة لمعظم التوجهات السياسية الفلسطينية المختلفة، فإن دور الأم مركزي في النضال. وكما تؤكد بيانات حركة «حماس»، فإن دور المرأة المسلمة هو في أهمية دور الرجل نفسه، فهي «مصنع للرجال»[3]. لم تتبن الجماعات الإسلامية وحسب هذه الفكرة، بل تبنتها معظم الفصائل الفلسطينية أيضاً. فياسر عرفات، على سبيل المثال، خاطب النساء كـ«أمهات الأمة».

كجزء من النضال الوطني، تم تغيير إجازة الأمومة من ستّة أسابيع إلى ثلاثة أشهر[4]. على إثر أول عملية إستشهادية لامرأة في عام 2000، صرّح الشيخ أحمد ياسين أن «حماس» لا تفكر بتجنيد نساء لهذه المهمة، فالرجال لم تنحض بعد، ومن وجهة نظره فإن دور النساء يجب أن يتركز على العناية بالعائلة، وتربية الأبناء

(١)عن عريب النجار؛ وكيتي وارنك، صور نساء فلسطينيات، سالت لاك سيتي، يونيفرسيتي أوف أتاوا برس، 1992، ص٢٦٠بالإنجليزية.

(٢)انظر/ ي ماري ليون، متزوجة مع الأرض؟ الجندر، الحدود، والوطنية في أزمة، دورهام، دوك يونيفرسيتي برس،2001 ، ص(148 . بالإنجليزية .) تقدم ليون هذه الرؤية من خلال تحليلها لفيلم «عرس الجليل».

(٣)انظر/ ي إصلاح جاد، نساء على تقاطع طرق : الحركات النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية ، رام الله، مواطن – المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،2008 .

(٤)المصدر نفسه، ص57 .

تربية إسلامية سليمة.

وعلى ما يبدو فإن معظم الإستشهاديات واجهن صعوبة لإيجاد حركة سياسية تتبنى عملياتهن. وعلى كل حال فإن حماس ناقضت خطابها السياسي الذي يعتبر النساء (وأجسادهن) ليسا أكثر من مصنعٍ للمقاتلين. فريم الرياشي، المجنَّدة من «حماس»، كانت أول أم تقوم بعملية استشهادية، وتستخدم جسدها كسلاح ضد الاحتلال.

الكثير من النساء تقبلن دورهن كمصنع للرجال، بل إن بعض الرائدات قمن بتعزيز هذه الفكرة. فسميحة خليل، على سبيل المثال، قامت بتقديم جائزة لأكبر عائلة عدداً، ووضّحت أنه، وعلى الرغم من أن ذلك قد يشكل عبئاً على المرأة، فهذه معركة بقاء، ولا يمكن تجاهل القلق الإسرائيلي من معدلات النمو الديمغرافي في فلسطين. وتعلق منى رشماوي على هذا قائلةً: «من أجل تغيير الوعي بهذا الشأن، يجب ألا يشعر الفلسطينيون بأن حياتهم مهددة، فأساليب الحمل ستتغير، عندما تشعر النساء الفلسطينيات أنهن لن يخسرن أبناءهن بالمرض أو الحرب.»(١)

وتشرح جولي بتيت لماذا تتبنى النساء هذا الدور: «النساء لا ينجبن من أجل الأمة، ولكن حملهن وتحدثهن عن خصوبتهن وإنجابهن، يعطيهن إحساساً بأنهن قدمن شيئاً كجزء من النضال الوطني».(٢) وكما تؤكد أم محمد فإن الفلسطينيات لديهن بطن عسكري.(٣)

إنه الفخر بالمساهمة في المقاومة ممزوجاً بإحساس الاستسلام للمصير. فكما

(١)نجار وكيتي، مصدر سبق ذكره، ص117 .

(٢)جولي بتيت، الجندر في أزمة : النساء وحركة المقاومة الفلسطينية، نيويورك، كولمبيا يونيفرستي برس،1991، ص 184 . (بالإنجليزية).

(٣)المصدر نفسه، ص185 .

تقول إحدى الأمهات: «نحن نولدهم، نربيهم وندفنهم من أجل الثورة»(١). فالنساء يشعرن في كثير من الأحيان أنهن مجبرات على تقبل هذا الدور حتى لا يُشكَّك في وطنيتهن، وحتى يؤكدن أنهن فعلاً يشاركن بدور مهم في المقاومة. ومع ذلك، فإن بعض النساء على وعي بأن أجسادهن تستخدم- ويساء استخدامها - لصالح الخطاب الوطني، فترد إحداهن على ذلك قائلةً: «جسدي ليس مصنعاً للأسلحة، إنه جسدي»(٢). مع ذلك، لمن النادر العثور على تصريحات من هذا النوع . فعلى الرغم من أن هذه المرأة ترفض جعل جسدها سلعة، فإنها تُعرِّض نفسها للاتهام بالخيانة عن دورها في المقاومة، وهو الدور الذي يقتصر على رحمها لا أكثر.

خصبة، غامضة وخطيرة : الأجساد في خطاب المحتل:

يُرمز إلى العلاقة ما بين فلسطين وإسرائيل في الخطاب الإسرائيلي بعلاقة ما بين رجل وامرأة، حيث فلسطين هي المرأة وإسرائيل الرجل، أو بعبارة أخرى، فإن المحتل/ الكولونيالي هو البطريركي . وعلى سبيل المثال، وصفت غولدا مئير فلسطين «بالعروس غير المرغوب فيها».(٣)

ففلسطين تظهر كامرأة (تُقرأ: ضعيفة) وتحتاج إلى عون ودفاع الرجل (إسرائيل)، ولكنها عندما تثور تفقد «صفاتها الأنثوية» لتصبح غير مرغوب فيها. بعد العدوان على غزة في كانون الثاني/ ديسمبر2008 ، انتشرت في الإعلام

(١)المصدر نفسه.

(٢)روبين مورغان، الحب الشيطاني ، نيويورك، واشنطن سكوار برس،2001، ص 274 . (بالإنجليزية).

(٣)عن فاطمة أحمد قاسم، اللغة والتاريخ والنساء- نساء فلسطينيات في إسرائيل يصفن أحداث النكبة، كتابات نسوية ما بين القمع وآصر ،لسطينية مقاومة، نادرة شلهوب- كيفوركيان(تحرير وتقديم) ، حيفا، مدى الكرمل - المر ز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية،2007 ، ص118 .

العالمي - بما فيه الإسرائيلي - صور لـ «تيشرتات» خاصة بوحدة القنّاصة، وهذا النوع من الـ «تيشرتات» يقوم الجنود باختيار صوره وتصميمه حسب الطلب ويرسلونه إلى إحدى المطابع . وكانت الصورة الأكثر انتشاراً في الإعلام هي لـ «تي شرت « يصوِّر امرأة فلسطينية محجّبة وحامل، تحمل بندقية بيدها فيما هي في مرمى هدف القناص تماماً، فبندقية القناص موجهة إليها ناحية الرّحم، فيما كتب تحت (قتيلان بطلقة واحدة)[1].

إن المرأة في هذه الصورة، بحملها وحجابها، تشكل خطراً غامضاً وغير معروف. وتصف ميدا يغينوغلو حجاب الشرقيات بأنه: «لا يصور النساء الشرقيات كغامضات وإكزوتيك فحسب، ولكنه أيضاً يصور الشرق على أنه إمرأة محجّبة، مغرية وخطيرة».[2] فحبل البندقية، في تلك الرسمة، هو أيضاً الحبل السرُّي الذي يربط السلاح برحمها، والذي هو بحد ذاته مركز الصراع.

يلاحظ أن معظم الـ«تيشرتات» التي نشرت تنظر إلى النساء وأجسادهن كبؤرة للمعركة. فمثلاً، يقول أحد الشعارات: «يُفضّل أن تستخدم ديوركس»، وبجانبه صورة لطفل فلسطيني ميِّت . وفي صورة أخرى، تظهر امرأة فلسطينية تبكي وبيدها لعبة كتب عليها: «على جميع الأمهات أن يعرفن

(١)عن يوري بلاو، أطفال فلسطينيون قتلى ومساجد مفجَّرة - أزياء IDF لعام2009 ، جريدة هآرتس، (بالإنجليزية). على موقع:
http: / / www. haaretz. com/ hasen/ spages/ 1072466. html
تمت زيارة الموقع في 20 / 3 / 2009 .

(٢)ميدا يغينوغلو، الفنتازية الكولونيالية . نحو قراءة نسوية للإستشراق، نيويورك، كامبريدج يونيفرسيتي برس، 1999، ص ١١، (بالإنجليزية).

بأن مصير أبنائهن في يدي». فالأمومة وتكاثر الشعب الفلسطيني يظهران كأخطار أساسية في الصراع.

يشكّل الإغتصاب أحد المواضيع المهمة في هذه الصور، فتظهر مثلاً صورة فتاة فلسطينية بعلامات زرقاء على جسدها وكتب إلى جانبها: «يبدو أنكِ قد اغتُصبتِ». وصورة أخرى لجندي يغتصب فتاة وكتب بجانبها «بدون عذراوات، ليس هناك عمليات إرهابية». فالنساء الفلسطينيات يظهرن كشيء غامض، خطر ومُهدِّد، ولذلك يجب (إعادة) تشكيله في آلة الهيمنة الكولونيالية.

غولدا مائير قالت بأنها تخشى من اليوم الذي ستستيقظ فيه لتتساءل كم طفلاً فلسطينياً قد ولد أثناء الليل؟[1] لذلك، فإسرائيل هي من أكثر الدول التي تقوم بعلاجات للخصوبة في العالم (أربع مرات أكثر من الولايات المتحدة الأمريكية)، ويغطي التأمين الصحي الوطني ذلك.

وتشجع إسرائيل المواطنات والمواطنين على الإنجاب، فإسرائيل هي البلد الوحيد في العالم الذي يموِّل التلقيح الاصطناعي للنساء العازبات، كما أن هناك تشريعات خاصة بالأرحام المستأجرة تميِّز ضد المرأة، ولكنها تضمن استمرارية النسل . وفي الوقت نفسه، فإن التأمين الصحي لا يموِّل موانع الحمل، والإجهاض مسموح فحسب من خلال لجنة خاصة.[2]

لكن كلا الخطابين القوميين الإسرائيلي والفلسطيني، يشجعان نساءهما ليلدن

(١)عن نيرا يوفال دافيس، **المجتمع اليهودي، النساء في الشرق الأوسط** ، سلمان ماجد وآخرون، لندن، خمسين زد بوكس،1987 ، ص ٦١، (بالإنجليزية).

(٢)للتوسع انظر/ ي ندى متى، **النسويات الإسرائيليات بصدد حق العودة الفلسطيني . دراسة=** =نقدية، كتابات نسوية ما بين القمع وأصوات فلسطينية مقاومة ، نادرة شلهوب - كيفوركيان(تحرير وتقديم) ، حيفا، مدى الكرمل - المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية،2007 .

أكثر، ليصبحن بذلك، مستخدمةً تعبير ترينه مينها: «أرحام تمشي على قدمين . . . ليس أكثر من عضو متخصص في إنجاب الأبناء»[1].

الجسد ما بين ثقافة العرض وثقافة المقاومة

ترتبط «ثقافة العرض» الخاصة بالثقافة العربية وثقافة البحر الأبيض المتوسط بمفاهيم «الأنوثة» و«الذكورة». وهذه الثقافة المتأصلة (أو المتخيَّلة) في المجتمع العربي، مرتبطة بشكل أساسي ومباشر بجسد المرأة . فهذه الثقافة، تحتِّم على النساء بأن يحافظن على أجسادهن ويبقينها «شريفة»، وعلى الرجال أن يدافعوا عن هذه الأجساد من أي خطر . فالاتصال الجسدي بين النساء والرجال ضمن النطاق المحظور، يهدِّد شرف العائلة، أو حتى المجتمع . ف «ضياع الشرف » لا يحدث نتيجة لسلوكيات النساء غير المقبولة في المجتمع فحسب، بل بشكل أساسي عندما تنتشر في المجتمع الأخبار عن هذه السلوكيات أو الحوادث . فعادةً، على العائلة أن تختار بأن تقبل التعايش مع «ضياع الشرف» والعار الذي يجلبه ذلك، أو أن تقوم «بغسل العار»، وهو ما قد يتم عن طريق سفك الدم.

يتسبب الاحتلال والوضع السياسي في فلسطين، في كثير من الأحيان، بالإخلال بمفاهيم الشرف، لتدخل ثقافة العَرْض في عملية معقدة يختلط فيها على المجتمع تحديد الأسباب التي تؤدي إلى «ضياع الشرف» أو تعرُّضه للخطر . فأجساد النساء والرجال معرَّضة بشكل شبه متساوٍ للتعذيب والألم . وكما توضح بتيت، فإنه وعلى الرغم من أن الأجساد تعاني طرائق التعذيب نفسها، فإن الرؤية والترميز الإجتماعي لهذا التعذيب، والمعاناة أو حتى النُّدب، تضع أجساد النساء في موقع مختلف . ففي حالة الرجال يعد التعذيب والحصول على النُّدب

(١) ترينه مينها، الإمرأة، الأصلية، الأخرى ، بلومينغتون، إنديان يونيفرسيتي برس، 1989، ص ٣٧، (بالانجليزية).

طقس من طقوس الوصول إلى قمة الرجولة . أما بالنسبة للنساء فتصبح مكانتهن «مبهمة أكثر منها بطولية» [1]. فمن جهة، تحث ثقافة المقاومة الفلسطينية جميع أفراد الشعب الفلسطيني على المقاومة بأشكالها، نساءً كانوا أم رجالاً، ويعتبر المجتمع الفلسطيني أي مقاومة ضد الاحتلال أمراً بطولياً، ولكن، ومن ناحية أخرى، فإن الإتصال الجسدي مع الرجال الغرباء (أو حتى التعرض للإغتصاب) يهدد- تبعاً للمجتمع الذكوري - عرض العائلة للخطر، مما يضع النساء في موقع غامض.

في كثير من الحالات اعتبرت الناشطات «فالتات» [2] فخلال فترات المقاومة المختلفة، قام الكثيرون بتحريض النساء على ترك المقاومة. تؤكد إحدى النساء بأن شيخاً قال، في خطبة صلاة الجمعة، بأن النساء اللواتي يذهبن للمظاهرات معرضات للاغتصاب، تماماً كما حصل في أبوغريب[3]. وروت بعض النساء أن دخولهن إلى السجن (على خلفية نضالية) كان يجلب العار (بشكل تلقائي) إلى العائلة كلها . فكما تؤكد سهام عبدالله بأن المتزوجات أنشط من الشابات: «لأنهن (مش سائلين)، زواج وتزوجن، وخِلفة وخلفن، وسمعتهن مصونة مهما عملن».[4]

تضيف: «في أول الانتفاضة أنا وكل بنات الحارة نزلنا للشارع في مظاهرة كبيرة، وبآذاننا سمعنا التعليقات ومنها هذا التعليق لأحد شباب حارتنا يقول:

(١)جولي بتيت، الجندر الذكري وطقوس المقاومة في الانتفاضة الفلسطينية الأولى، الرجولة المتخيلة . الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث ، بيروت، دار الساقي،2002 .

(٢) المصدر نفسه.

(٣)عن نادرة شلهوب - كيفوركيان ونهلة عبده، استشعار محن النساء المهجرات في القدس الشرقية ، القدس الشرقية، مركز دراسات المرأة، 2006، ص ٦٢، (بالإنجليزية).

(٤)سحر خليفة، سهام عبدالله من حارة التوتو في البلد القديمة، شؤون المرأة ، عدد1 ، مايو/ أيار 1991، ص ٩٠.

(شوفوا الشـ ... نازلين يفرجوا حالهم، وبعملوا المظاهرة حجة حتى يقابلوا عشاقهم)[1]. وقد دفع ذلك الكثير من النساء إلى ترك المقاومة أو القيام بنشاطات بعيداً عن قراهن وألسنة مجتمعاتهن.[2]

وقد عانت كثير من المعتقلات- خاصة الأوائل منهن - من وصفهن بنساء غير شريفات. تروي تيري عطوان، بأنها عندما اعتقلت كانت الجارات يذهبن لتعزية والدتها بفقدان ابنتها.[3]

كما تروي روضة البصير، بأن اعتقالها أثّر على زواج إخوتها.[4] وتقول فيروز عرفة إن كثير من الرجال قد عدلوا عن فكرة الزواج منها عندما علموا عن اعتقالها، وتروي كيف أن حتى عائلتها عاملتها كما لو أنها مسؤولة عن تهديد شرف العائلة:

«أطلق أبي لحيته ، لمدة ثلاثة أشهر حتى حان موعد زيارتي ... لاحظته يبكي من بعيد. وسألني عن شعري وأظافري ومن ثم سأل السؤال الذي كنت أتوقعه: «هل عملوا بك شيئاً) أجبته بالنفي .... ولم يأبه أبي بعدها بكلام الناس، ولكن ما كان يؤرقني موقف أخي الذي رفض زيارتي واعتبر اعتقالي معيباً للعائلة ... صممت على أن أجيب على أسئلة الناس بكل صراحة: «هذا هو الاحتلال، والاعتقال ليس عاراً».[5]

وعلى الرغم من أن عرفة قررت مواجهة المجتمع وأفكاره المبلورة سلفاً

(١)المصدر نفسه.

(٢)شلهوب - كيفوركيان وعبده، مصدر سبق ذكره.

(٣)إيا أوغستين، النساء الفلسطينيات . الهوية والتجربة ، لندن، زد بوكس،1993 ، ص . 57 (بالإنجليزية).

(٤)عن ريموندا الطويل، سجينات الوطن السجين ، القدس، مؤسسة الثقافة الفلسطينية،1988 ، ص265.

(٥)اعتماد مهنا، أمل عرفة، شؤون المرأة ، عدد5 ، يونيو/ حزيران 1992، ص ١١٤.

عن الشرف، فإن خوفها من اتهامها بتضييع شرفها لم يختفِ: «سألتني إحدى الجارات وهي في السادسة والثلاثين من عمرها: (بالله عليك يا لولو [بدلعوني لولو] صحيح بيناموا مع البنات، يعني بسخموهم، وبيعتدوا عليهم ؟!) فأجبتها وأنا أعرف جيدًا أنها لن تصدِّق: (مش صحيح).»[1]

من الملاحظ أن المعتقلات في الفترات الأولى قد عانين من «المكان المبهم» أكثر من اللاحقات. فعندما زادت مشاركة النساء في المقاومة زاد عدد المعتقلات السياسيات نتيجة لذلك، وابتدأ مفهوم «الشرف» يأخذ أبعاداً أخرى.

ما بين قمع المقاومة واحتلال الجسد

يفترض فرانس فانون أن المحتل يسيطر على النساء عادةً كوسيلة للقضاء على مقاومة الشعب بأكمله . وإسرائيل تعرف جيداً القوة التي تملكها عن طريق اللجوء إلى «ثقافة العَرْض»، ولهذا فإنها تقوم مثلاً بنشر الإشاعات التي تسيء إلى سمعة النساء الفلسطينيات. فكما تؤكد شلهوب- كيفوركيان: «ليس على السلطات الإسرائيلية أن تقوم بسجني، بل يكفي أن تقوم بنشر الإشاعات البذيئة عني والتي قد تنعكس على سمعتي الجنسية كامرأة»[2]. فإسرائيل تستخدم «ثقافة العرض» كسلاح ضد المقاومة الفلسطينية، منذ بدايات الإحتلال.

عندما بدأت العصابات الصهيونية المسلحة باحتلال القرى والمدن الفلسطينية عام 1948، نُشرت الإشاعات عن حالات اغتصاب كانت- في كثير من الأحيان - لا تمت للواقع بصلة، فقد ساعدتهم هذه الإشاعات على تخويف الأهالي واحتلال القرى[3]. فكثير من العائلات تركت قراها خوفاً على

(١)المصدر نفسه.

(٢)أوغستين، مصدر سبق ذكره ، ص118 .

(٣)أنظر/ ي : إلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين ، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت،2007 . ص236 - 239 .

«شرف» العائلة، فكما تشير كيتي وارنك: «بالنسبة لكثير من الرجال الفلسطينيين، كان الحفاظ على نسائهم من الإغتصاب أهم من الدفاع عن بيوتهم»[1]. ولكن مع مرور الوقت، بدأ الشعب الفلسطيني بمقاومة هذه الثقافة، مقاوماً بذلك الإحتلال أيضاً.

تقول جولي بتيت: «سارع جيل الثورة في بداية الثمانينيات بانتقاد مفهوم العرض، فتم ربط مفهوم العرض بالأرض، كلعبة في الكلمات ومعانيها، فأنشأوا رموزاً جديدة لثقافة المقاومة الفلسطينية، أحد هذه الرموز كان الشعار الذي يحمل عبارة: الأرض قبل العرض»[2].

فقد استخدمت قوات الإحتلال أجساد النساء لسحب اعترافات من الرجال. فمثلاً، استخدم الجنود الإسرائيليون أجساد النساء المعتقلات للضغط على زملائهم من المعتقلين الرجال. تروي عائشة عودة في مذكراتها: «أمسك أحدهم بقدميّ والآخر بذراعيّ، مسحا الأرض بي إلى الممر. صف من الشباب أوقفوهم إلى جانب الممر. أغمضت عيوني، ساروا بي في الممر ثم عادوا. انفجر أحد الشباب باكياً. كان بكاؤه نشيجاً»[3]. فقوات الاحتلال دعت الرجال «ليتفرجوا» على نسائهم بعد التعذيب كوسيلة للضغط عليهم. وفي كثير من الحالات تطلب قوات الاحتلال من قريبات المعتقلين المثول للتحقيق، أيضاً، كوسيلة للضغط عليهم. فكما تؤكد إحداهن: «أخبرني زوجي فيما بعد أن المحقق

(١)كيتي وارنك، **الأرض قبل العرض . النساء الفلسطينيات في الأراضي المحتلة** ، نيويورك، مونثلي ريفيو برس، 1990، ص ٢٣، (بالإنجليزية).

(٢)بتيت، **الأصالة والجندر : تمثيل الثقافة، النساء العرب : روابط قديمة، حدود جديدة**، جوديث تكر(تحرير)، بلومينغتون، إنديان ينيفرستي برس،1993 ،(بالانجليزية) ، ص51 .

(٣)عائشة عودة، أحلام بالحرية ، رام الله، مواطن – المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية،2007، ص150 – ١٥١.

هدّد بضربي وتعذيبي إلى أن أفقد طفلي الحامل به، إلا إذا اعترف زوجي»[1].

وما يلاحظ من هذه الرواية، أن الشعب الفلسطيني لم يهُدَّد بأجساد نسائه وعرضهن فحسب، بل أيضاً هُددت أمومتهن . فعلى الرغم من أن الإحتلال يرى في الخصوبة والأمومة الفلسطينية خطراً، فإنه من الناحية الأخرى يرى المرأة الحامل أو الأم كائنًا «ضعيفًا». وهو يعتقد أن بإمكانه استخدام هذا «الضعف» لصالحه، كي يضغط على المعتقلين والمعتقلات.

فبتحليل بعض الروايات، يلاحظ أن قوات الإحتلال حاولت استخدام الأمومة كسلاح للتحكم بنشاطات المقاومة تقول مها نصار:

«المرة الثالثة التي اعتقلت فيها كانت خلال الإنتفاضة، وكانوا قد اعتقلوا زوجي قبلي . كان الوقت مساء، وكنت أحمِّم أطفالي فدخل الجنود الحمام وظلوا يراقبونني وأنا أقوم بالعملية . واصلت الحمام بشكل طبيعي،وصرت أحكي الحكايات وأتحدث وأضحك حتى لا يخاف الأطفال»[2].

فعقاب نصار تمثّل في اعتقالها أمام أعين أبنائها، لا بل إن الجنود اقتحموا خصوصية الحيِّز الحميم للأم والأبناء . مثال آخر هو ما ترويه ربيحة ذياب، والتي اعتقلت عندما كانت ابنتها في شهرها الثالث:

«تقدمت حينها بأكثر من طلب، عن طريق المحامي، لإحضار ابنتي كي أرضعها .وبعد فترة تمت الاستجابة لطلبي من قبل سلطات السجن، وكانت ذات هدف، إذ أن إحضار إبنتي كان لإسماع صوتها وهي تبكي ، وليس من أجل إرضاعها . وضعوها قريبة من زنزانتي وسمعت صوتها وهي تبكي، ولظنهم أنني

(١)وارنك، مصدر سبق ذكره ، ص188 .

(٢)سحر خليفة، مها مستكلم نصار : لجان المرأة الفلسطينية – رام الله، شؤون المرأة ، عدد1 ، مايو 1991، ص78 .

الآن وصلت إلى أعلى درجات التأثر والانفعال ، تم إجراء التحقيق معي مرة أخرى . ورغم ذلك لم يستطع جهاز المخابرات الذي فكر باستغلال صيحات رضيعتي أن يفرض عليَّ ما يريد».[1]

فالمعتقلات السياسيات الحوامل كن دوماً يهدَّدن بإجهاضهن عنوة، أو السماح لهن بالولادة خارج السجن فقط إن قبلن بالنفي خارج فلسطين، وعلى الرغم من أن المنفى هو ما يتفاداه الشعب الفلسطيني دائماً، فإن الكثير من النساء لم يجدن أمامهن طريقاً آخر، فاضطررن للقبول[2].

تعاني المعتقلات السياسيات الفلسطينيات في السجون الإسرائيلية من الإساءة الجسدية المستمرة، ومن التهديدات بما يعتبر في مجتمعهن «ضياعاً للشرف»، فالكثيرات من المعتقلات روين أن عقابهن كان عن طريق وضعهن في سجن مع مومسات، الشيء الذي قد يهدد - باعتقاد قوات الاحتلال - شرفهن، ولكن، تقول مها نصار، على سبيل المثال: «كانت نتيجة وضعي عند هؤلاء السجينات اليهوديات المتهمات بقضايا الدعارة أنني خرجت من عندهن وأنا متعاطفة معهن . وكان المحقق يقصد عكس ذلك، إذ وضعني عندهن كعقاب».[3]

كتاب ريموندا الطويل «سجينات الوطن السجين» يتضمّن سيرة 27 سجينة، ومن الملاحظ أن غالبيتهن قد هُدِّدن بأجسادهن أو شرفهن، فحتى لو أنه لم يكن هناك الكثير من حالات الإغتصاب المعروفة منذ الاحتلال وحتى الآن، إلا أن إسرائيل استخدمت «الشرف » كأحد أسلحتها المفضلة.

---

(١)فداء الشوملي، ربيحة ذياب : اتحاد لجان المرأة للعمل الاجتماعي، شؤون المرأة ، عدد5 ، يونيو/ حزيران 1993 ، ص66 .

(٢)انظر/ ي مثلاً إلى رواية عبلة طه في : الطويل، مصدر سبق ذكره.

(٣)خليفة، مها . . . مصدر سبق ذكره ، ص78 .

في السيرة الذاتية لعائشة عودة «أحلام بالحرية»، تروي بأنه خلال التحقيق معها، كانت الكثير من الأسئلة متعلقة بحياتها الجنسية بدلاً من السياسية، فقد سئلت مثلاً: «كم عدد الرجال الذين نمت معهم؟»، أتريدين أن تقولي أنك مازلت عذراء؟!.»[1] وتروي عودة أنها عُذِّبت ليلة كاملة حتى تقول «أنا شرموطة» عشر مرات. ومن الملاحظ أنها فضلت تحمل التعذيب على أن تقول جملة بالنسبة لها قد تضر بشرفها. الرواية عن اغتصابها هي أيضاً مثيرة للانتباه، فعلى الرغم من أن عودة تتحدى قيود المجتمع وتتحدث عن الإغتصاب، فإن حادثة الإغتصاب تروى بجملة واحدة: «عزرائيل يحاول بالعصا اختراق رحمي»(٢). اغتصابها بعصا هو أمر لا بد من التوقف عنده، فالإغتصاب هنا ليس بعملية جنسية، بل هو سلاح في المعركة، يستخدمه المحتل للتحكم بالشعب بأكمله عن طريق أجساد نسائه.

أما بالنسبة لنمط الإغتصابات (أو التهديد به) فقد لوحظ أن هناك عامل مشترك يجب الوقوف عنده : فإسرائيل لا تستخدم رجالاً يهوداً في تهديداتها، بل تلجأ إلى الإشارة إلى الدروز، المثليات، المومسات، أو تلجأ إلى أشياء- مثل العصا - كعامل أو أداة للإغتصاب (الفعلي أو المهدّد به). فهذه «العناصر» تستخدم كشيء أو كجسد «غريب» مُطوّع ليستخدم كأداة للقهر.

فهل نجح المحتل والبطريركي في إجبار أجساد النساء على الصمت؟ أم هل أن الجسد «كهدف للسلطة»[3] يستطيع أن يتحول إلى كيان مقاوم وحي؟ وهل حولت المرأة الفلسطينية جسدها المستخدم كسلاح من (مفعول به) إلى

(١)عودة، مصدر سبق ذكره، ص142 .

(٢)المصدر نفسه، ص149 .

(٣)انظر/ ي، محمد علي الكبيسي، ميشيل فوكو : تكنولوجيا الخطاب، تكنولوجيا السلطة، تكنولوجيا السيطرة على الجسد، سراس للنشر - تونس،1993، ص58 - 72 .

سلاح المقاومة الخاص بها(فاعل) ؟

جسد النساء الفلسطينيات : سلاح لمن؟

ذاكرة الجسد

حولت المرأة الفلسطينية لغتها الحربية إلى جسد، وجسدها إلى لغة مقاومة . تقول هيلين سيكسو أن جسد المرأة هو لغتها، وتضيف: «بجسدها تدعم منطقية كلامها، وتجسد مادياً ما تفكر : فتعطي له معنى بجسدها»[1]. وكلمات الفرنسية سيكسو تنطبق تماماً على الفلسطينيات، اللواتي استخدمن أجسادهن كلغة وكرواية يصفن بها ما يجري تحت الإحتلال . وتشير دراسة فاطمة أحمد قاسم المثيرة للانتباه، إلى أنه بينما يستخدم الرجال تعابير على غرار «يوم ما احتلت إسرائيل»، أو «أيام ما احتلت اليهود» - وهي تعابير سياسية مأخوذة من الخطاب الشائع في الصحافة والراديو والجدالات السياسية التي تدور في الفضاء العام[2]. تستخدم النساء تعابير مثل «دخلت إسرائيل»، «أخَذَنا اليهود»، «أخذتنا إسرائيل» [3]، وتفسر الباحثة ذلك قائلةَ:

«هذا الوصف متناظر مع دخول العريس إلى العروس في ليلة الدخلة. فوفقاً للمعايير الاجتماعية الفلسطينية، جرت العادة على القول بالعربية المحكية: (العريس بيدخل على العروس بليلة الدخلة). على العروس أن تكون عذراء في ليلة دخلتها، وعلى العريس اختراق جسدها وفض بكارتها ... فالدخول إلى قرية

(١)هياين سيكسو، ضحكة الميدوزا 1975 ، النسوية : أنثولوجيا النظرية الأدبية والنقد ، روبين وارهل وديان برايس هرندل، نيو برونسويك، روتجرس يونيفرستي برس(تحرير وتقديم) ،1997 ، ص٣٥١، (بالإنجليزية).

(٢)قاسم، مصدر سبق ذكره ، ص١١٧.

(٣)المصدر نفسه ، ص116 .

أو مدينة، مثل اختراق الجسد[1].

ووفقاً لقاسم، فإن فعل أخذ المرأة في ليلة الدخلة يرمز في الثقافة الفلسطينية إلى «نهاية فترة العذرية وعهد سذاجة وطهارة المرأة، هكذا هو احتلال الصهيونية لـ(البلاد)، الذي لوَّث البلاد، ووضع حداً لطهارتها»[2]. فالدخول في ليلة الدخلة هو أمر مقترن بالدم «ولفعل تمزيق عذريتها »(أخذها)« تجتاز المرأة سيرورة مقترنة بالعنف والألم، دون أن يجري تحضيرها لما ينتظرها»[3]. فأخذ العذرية واجتياز حدود جسدها هو- كما تلاحظ قاسم - أمر معروف لدى عائلتها وحصل «تحت ستار شرعية (العائلة) العربية»[4]. وهو ما يقترن باحتلال فلسطين بتواطؤ من بعض البلاد العربية.

كل ذلك مرتبط بالنسبة للنساء بالاحتلال والنكبة، وهو ما ينعكس على لغتهن. فذاكرة النساء هي ذاكرة أجسادهن. فالأحداث التاريخية، والنكبة بشكل خاص، مرتبطة بالتاريخ الشخصي للجسد، فكما تشير إحدى النساء: «كنت بَعْدني بنت لمّا دخلت اليهود»[5] فقد خلقت النساء لغة بديلة لوصف النكبة، مقاومات بذلك اللغة الصهيونية الكولونيالية، ومقاومات أيضًا اللغة القومية المهيمنة.

رواية الجسد:

لم تحول النساء أجسادهن إلى لغة مقاومة فحسب، بل استخدمن

(١)المصدر نفسه، ص117 .

(٢)المصدر نفسه، ص119 .

(٣)المصدر نفسه.

(٤)المصدر نفسه.

(٥)عن المصدر نفسه، ص121 .

رواية الحكاية عن أجسادهن كوسيلة للمقاومة . فقد تحدثت بعض النساء عن حوادث الإغتصاب في السجن[1]، بالرغم من أن ثقافتهن تجبرهن على السكوت عنها. وبذلك لجأن إلى الرواية عن جسدهن لمقاومة القمع الممارس «على» أجسادهن من قبل المجتمع والاحتلال.

فالتحدث بشكل علني عن حوادث الإغتصاب خلق ردة فعل جديدة في المجتمع، فكما تؤكد روضة بصير:

«إن الخطوة الأولى للتحرير هي التحرر من الخوف من الإغتصاب، إثنتان من السجينات المعتقلات بعد 1967، تحدثن بشكل علني حول إغتصابهن بالعصا من قبل المحققين الإسرائيليين. مؤكدات بذلك أن الأمر هو أحد الأفعال التي يرتكبها العدو وهو أمر يجب ألا نخجل منه»[2].

بذلك أصبح إطلاق حكم اجتماعي سلبي على السجينات أمراً أشبه بالخيانة للقضية الفلسطينية، بل إن السجينات أصبحن يعتبرن بطلات. فكما تؤكد فيروز عرفة: «خرجت من المعتقل، عملوا لي زفّة. فرحوا جميعاً بخروجي، طالبني أبي بأن أخرج وأسلم على الرجال، وأشد على أيديهم بقوة. سمعتهم يقولون: (إشي بيشرف وبيرفع الراس)[3]. ويجب هنا الوقوف عند حادثة التسليم على الرجال، فعرفة لم تعتبر بطلة فحسب، بل متساوية مع الرجال، فالأب طلب منها مصافحة الرجال، مؤكداً بذلك أن شرفها محفوظ ، حتى ولو كان هناك اتصال جسدي مع الرجال داخل أو خارج السجن، فـ«رجل البيت» على علم بما قامت به ابنته وموافق عليه، بل يعتبره أمراً بطولياً.

(١)انظر/ ي مثلاً، عودة، مصدر سبق ذكره ، أو الفيلم الوثائقي لبثينة خوري(إنتاج وإخراج) ، نساء في الصراع، ٢٠٠٤، (بالإنجليزية).

(٢)النجار ووارنك، مصدر سبق ذكره ، ص٩٠.

(٣)مهنا، مصدر سبق ذكره ، ص114 .

كما نلاحظ من هذا السرد، أن المجتمع الفلسطيني، وخاصةً النساء، بدأن بربط مفهوم الشرف بالوطنية، بدلاً من حصره بما يتعلق بالجسد. تقول حنان عشراوي: «المصدر الجديد لمفهوم الشرف مرتبط بنشاط المرأة السياسي وليس بعفتها، فمن المشرِّف المشاركة في الانتفاضة»[1].

بالنسبة لكثير من الفلسطينيات، فإن فقدان الشرف هو بعيد عن حدود الجسد، فالشرف هو الوطنية والمقاومة. نرى هذه الرؤية الجديدة في عبارات ليلى خالد: «نحاول أن نؤكد بأن الشرف له معانٍ أبعد من العذرية، فالشرف هو إعادة أراضينا»[2].

الحجاب: السجن المحرِّر؟

لم تقم النساء الفلسطينيات بإعادة بناء مفهوم الشرف فحسب، بل حولن «رموز الشرف» إلى «عناصر مقاومة». فالحجاب الذي يعتبر أحد الرموز المتعلقة بـ «حماية الشرف»، استخدم كوسيلة لتسهيل نشاطات النساء في المقاومة . وقد لاحظت إصلاح جاد، أن الإسلاميات ذكرن بأن الحجاب يعطيهن الحرية لحضور الإجتماعات السياسية حتى في أوقات متأخرة ويمنحهن حصانة تحميهن من أي مضايقات.[3]

عبر فترات تاريخية مختلفة وفي عدّة مناطق من العالم، اعتبر الحجاب رمزاً للمقاومة الثقافية ضد المحتل، ووسيلة لتأكيد الهوية الوطنية، والإصرار على استخدام الحجاب كان- في كثير من الأحيان - يعني مقاومة الاحتلال . فكما تشير يغينوغلو: «كانت الكولونيالية الفرنسية والبطريركية الجزائرية يضعون

(١)عن وارنك، مصدر سبق ذكره ، ص187 .

(٢)مورغان، مصدر سبق ذكره ، ص211 .

(٣)جاد، مصدر سبق ذكره ، ص136 .

مخاوفهم، رغباتهم، وسياساتهم في جسدها المتحجِّب، فأصبح الحجاب رمزاً فعالاً في هذه المعركة».[1]

لقد أصبح الحجاب أشبه بـ«سجن محرِّر» للنساء، ففي عام 2000 أُجبرت شفاء الهندي على إزالة حجابها على يد جندي إسرائيلي حاول إزالته رغماً عنها، فدافعت عن نفسها ببصقة، الأمر الذي جعل الجندي يضربها بعقب بندقيته، مما أفقدها بصرها . بالنسبة للهندي، فإن الدفاع عن حجابها يعني الدفاع عن هويتها وشرف وطنها، فالمرأة المحتلة كما تشير يغينوغلو: «جسدها ليس ما هو في داخل الحجاب وحسب، بل هي مكونة من (وعبر) نشاط نسيج ذلك الحجاب»[2].

فإزالة حجابها يعني سلخ جلدها. والمثير للانتباه- كما لاحظ فاروق وادي: «مثل المرأة الجزائريّة التي خلعت الحجاب لتتهيأ للهجوم، كانت شفاء تطل من شاشة التلفزيون بوجه حاسر أمام الكون كلّه، غير هيّابة وهي تتحدّث لإحدى الفضائيات عن تلك التجربة القاسية التي فقدت فيها بصرها، وكأنها تعيد التأكيد على الحقيقة: أخفي وجهي إذا ما كان ذلك عملاً وطنياً . . وأقف أمام الدنيا حاسرة الوجه وأنا أخوض المعركة ضدّ من أفقدوني نعمة البصر»[3]. مؤكدة بذلك أنها كانت تدافع عن حريتها في استخدام الحجاب ضد المحتل الذي أراد أن يسلبها هذه الحرية.

إن أجساد النساء هي جزء من ساحة المعركة للتوجهات السياسية المختلفة، وهي بذلك تخضع إلى عملية إعادة خلق لمعناها السياسي . فقد حاولت «حماس»، في عدّة مراحل سياسية، فرض الحجاب على النساء كجزء من معركتها مع

(١)يغينوغلو، مصدر سبق ذكره، ص137 .

(٢)المصدر السابق، ص119 .

(٣)فاروق وادي، الحرية من وراء حجاب، الأيام، رام الله، 17 / 11 / 2000

«فتح» وكوسيلة لفرض نفوذها، وكما تؤكد ريما حمامي:

«حاولت حماس تحويل العناصر الاجتماعية في برنامجها إلى عناصر وطنية وجزء من الإيديولوجية الوطنية، وكانت الوسيلة لتحقيق ذلك هي النساء، فقامت حماس باستغلال (ثقافة احتشام الانتفاضة) لتعتبر الحجاب من الواجبات الوطنية على النساء، وجزء من ثقافة الانتفاضة، لا بل طريقة لإظهار الاحترام للشهداء»[1].

أشلاء من الجسد أم شظايا مقاومة؟

ترتبط «ثقافة العرض» بثقافة أخرى، هي «ثقافة العيب» المتعلقة بالجسد، فكما نلاحظ من سيرة فدوى طوقان الذاتية، هناك خجل من الجسد متأصل في الثقافة الفلسطينية: «ولفت نظري تفتح جسدي .. خفت. وخجلت. وأربكني نمو الصدر الذي أصبح الآن ملحوظاً، فكنت أعمل على إخفاء هذا النمو . ورحت أراقب هذا الأمر كله بحياء شديد كما لو كان ارتكاب ذنب مخجل أستحق العقاب من أجله».[2]

فوجود الجسد بحد ذاته هو «تابو» تستغله إسرائيل دائماً، بل تعمل على نشره .فقد رويت قصص لنساء أُجبرن على خلع ملابسهن على الحواجز.

تروي شلهوب – كيفوركيان، أن أم رامي، وفي اليوم الرابع على استشهاد ابنها برصاصات الاحتلال، اضطرت لأن تملأ إناءها الكبير باللبن، وتتوجه عابرة الحواجز لتبيع اللبن في رام الله، وتقول شلهوب – كيفوركيان إن الجندي

(١)ريما حمامي، مشاركة النساء السياسية في الانتفاضة : نظرة نقدية ، مؤتمر الانتفاضة وبعض قضايا المرأة الاجتماعية، رام الله، لجنة دراسات نسوية ومركز بيسان،1991 ، ص78 .

(٢)فدوى طوقان، رحلة جبلية رحلة صعبة ، القاهرة، دائرة الثقافة – منظمة التحرير الفلسطينية، 1989، ص 53 .

الإسرائيلي حاول إهانتها: «حين طلب منها رفع دشداشتها ليرى ما تحمله تحتها فأخذ رجل فلسطينيّ واقف ينتظر دوره على الحاجز وراءها يصيح بها: (إرجعي يا حرمة ... عيب والله عيب) . ولكن أم رامي بلغتها - لغة امرأة قوية تؤمن بحقها في ممارسة حياتها الطبيعية - وبرغبتها في أن تعود إلى بيتها وعائلتها مع بعض المال والزاد، تغاضت عن صراخ الرجل الواقف مهاناً هو أيضاً وراءها، ورفعت دشداشتها لتثبت للجندي أنها غير محتاجة لتخبئة أي شيء تحت ملابسها»[1]

تصف شلهوب- كيفوركيان أم رامي قائلةً: «لقد حوَّلت أم رامي، بطنجرة اللبن التي تحملها، تجاربها إلى براعم حياة جديدة ومقاومة لسياسة المحتل»[2]. وأضيف على كلماتها أن أم رامي قد حولت جسدها أيضاً إلى كيان مقاوم .فقد وضعت الفلسطينية جسدها في حيز الوجود، وأعطته حق الحياة، مقاومة بذلك ثقافة العيب والخجل من الجسد، وكان ذلك وقبل كل شيء طريقاً للمقاومة السياسية للاحتلال.

رحاب عيساوي كتبت على حائط زنزانتها وصية عدم الخوف من التهديد بواسطة الجنس، وتروي العيساوي: «عندما وجه لي المحقق هذا التهديد، وكان ذلك في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، والمحقق يمسك بيده علبة من البيرة ويتأملني باستهانة وبابتسامة صفراوية . ولكني بمنتهى الثبات بدأت أخلع ثيابي . فسألني، لماذا؟ ما الذي جعلك لا مبالية إلى هذا الحد؟ قلت : بصراحة أنا في سجن إسرائيلي، وأمامي ثلاثة رجال أصبحوا بحضور صديقكم الذي تهددونني به أربعة، فهل تستطيع فتاة عزلاء أن تقاوم أربعة رجال؟ المقاومة

(١)شلهوب - كيفوركيان، مصدر سبق ذكره ، ص12 .

(٢)المصدر نفسه ، ص11 .

عبث لا فائدة منها»![1].

وبذلك أصبح التهديد بفقدان الشرف سلاحاً يفقدُ قوته . فكما تروي فاطمة الكردي بأن المحقق هددها بأنه سيجلب لها مومسات لاغتصابها، فردت عليه ببرود : «حسناً . . . هل هن بنات جميلات؟»[2].

تؤكد تلك النساء بأن أجسادهن ليست سلاحاً بيد العدو، بل هي من ملكيتهن الخاصة وتحت تحكمهن الخاص، معلنات للمحتل بأنهن أنفسهن هنّ أجسادهن.

إن وجود الجسد بحد ذاته، يعتبر أمراً معيباً في الثقافة العربية المهيمنة، وبذلك على النساء أن يغطين أجسادهن ويحرصن على نفي وجودها . ولكن، ومما يثير السخرية، هو أن هذه الثقافة العربية ذاتها تقوم- تماماً كالثقافة الغربية المهيمنة -بدعم فكرة جعل أجساد النساء العربيات «مجبرة « على أن تكون مثالية ومغطاة في الوقت ذاته . ولذلك، فإن كثيراً من النساء اللواتي شاركن في المقاومة، يخفن من «تشويه أجسادهن». وكما توضح سهام عبدالله، فإن سبب عدم مشاركة الكثيرات في المقاومة: «المسألة ليست الكلام والسمعة والقيل والقال، وكذلك الخوف من الإصابة والتشويه والسجن اللذان يدفعان الفتاة لتحسب ألف حساب. بصراحة أنا خائفة من الإصابة والتشويه، وإذا حصل وشوِّهت من سيقبل بي زوجة»[3].

تستغل إسرائيل هذا الخوف من «تشويه الجسد»، وتستخدمه للحد من مشاركة النساء في المقاومة . فريال سالم فقدت عينها اليسرى وأسنانها ، أثناء تحضير عبوة ناسفة، وفي اللحظة التي استيقظت فيها من غيبوبة دامت سبعة أيام،

(١)عن طويل، مصدر سبق ذكره ، ص120 .

(٢)عن المصدر نفسه ، ص206 .

(٣)خليفة، سهام عبدالله. . . ، مصدر سبق ذكره ، ص90 .

بدأت المجنَّدة محاولة كسر شوكتها عن طريق الإشارة إلى جسدها. تروي سالم أنها سألتها: «هل تملكين الشجاعة لإلقاء نظرة على نفسك في المرآة؟»[1] فوضحت لها سالم بأنها ليست حزينة لفقدان عينها: «إنني أرى بها أكثر مما يرى الآخرون ... أرى بها الأشياء والحقائق والأفعال والضمائر ... واضحة جلية ... فهي أقوى وأفضل وأجمل مما كانت عليه»[2].

تقودني كلمات سالم إلى التساؤل: هل تحولت أجساد الفلسطينيات إلى أشلاء، أم أنهنّ قد حولن أجسادهن إلى شظايا مقاومة؟

تروي هند بأن الإسرائيليين قطعوا حلمتها أثناء التعذيب وأعادوا خياطتها، وعندما عادت للتحقيق مرة أخرى عادت أقوى وأكثر مقاومة: «خدوا ثديي الآخر»[3]. أما خديجة عرقوب فنراها تفتح كيساً من البلاستيك وتخرج منه أجزاء من شعرها الأسود أزيلت عن رأسها أثناء التعذيب وتعطيها للقاضي والمدعي العام الإسرائيلي.[4]

هذه العين، الثدي، والشعر، حتماً ليست أشلاء من الجسد، بل هي بلا شك شظايا مقاومة.

أجساد متفجِّرة

يرى ميشيل فوكو أن الأجساد البشرية في أي مجتمع هي عناصر استثمار للسلطة التي تقوم بتدجين وغربلة وتطويع هذه الأجساد عن طريق عملية «تشريح سياسي» ، تتم عبر «آلة الهيمنة». فالتحليلات في هذه الدراسة تظهر بأن أجساد

(١)عن طويل، مصدر سبق ذكره ، ص111 .

(٢)المصدر نفسه .

(٣)وارنك، مصدر سبق ذكره ، ص152 .

(٤)طويل، مصدر سبق ذكره ، ص43 .

النساء الفلسطينيات تُطوّع على يد سلطة/ خطاب المحتل من جهة، وعلى يد مجتمع ذكوري في غالبيّته من ناحية أخرى . ويؤكد فوكو بأن التطويع والتهذيب يصنعان أجساداً راضخة ومروَّضة[1]، أجساداً مطوَّعة . وهنا أتساءل إلى ما قد آلت إليه أجساد النساء الفلسطينيات . فهل فعلاً تحولت إلى أجساد مروّضة ومطوّعة؟

تروي رلى أسطية قصة إدخال جسدها إلى آلة الهيمنة:

«استقلينا سيارة أجرة ، والتي تركتنا بعيداً عن الحاجز، فلا يسمح للسيارات بأن تصل للحاجز نفسه . ومن هناك مشينا بقية الطريق . كنت أتألم . كان هناك القليل من الجنود على الحاجز، تجاهلونا . ذهب داود للتحدث معهم، فوجه أحدهم بندقيته إليه . كنت متألمة وشعرت أنني سألد هناك . تمددت على الأرض، على القذارة، وزحفت إلى أن وصلت خلف صخرة لأحصل على خصوصية . وقمت بإنجاب طفلتي هناك، في القذارة، مثل الحيوانات . حملت طفلتي، تحركت قليلاً، ولكن وبعد دقائق قليلة، توفيت بين ذراعيّ»[2].

فأجساد الفلسطينيات تشكل خطراً على الوجود الإسرائيلي، أي أنه لا بد من تطويعها من خلال آلة الهيمنة المسماة بالحواجز، فرحم أسطية وأرحام عشرات من الفلسطينيات «انفجرت » على الحواجز . أما أخريات، فقد انفجرت أرحامهن حرفياً نتيجة للقنابل الصوتية . فهن- مثل كثيرات ممن أشرت إليهن في هذه الدراسة - دُفعن إلى آلة الهيمنة، ليعاقبن ويُطوّعن.

لكن هل حَوّل هذا التطويع البطريركي والكولونيالي أجساد النساء الفلسطينيات فعلاً إلى «أجسادٍ مطوعة »؟ أم أن الضغط على هذه الأجساد عبر آلة

(١)الكبيسي، مصدر سبق ذكره.

(٢)عن هاجر كوتف ومراف أمير، جندرة الحواجز : مراقبة الحواجز وصدى التدخلات، ساينز : مجلة دراسات المرأة في الثقافة والمجتمع ، مجلد32 ، عدد4 ،2007 ، ص977 .

الهيمنة أدى إلى انفجارها؟

ليلى، إحدى المتدربات للقيام بعملية إستشهادية تساءلت: «ما الفائدة من جسدي إن جُرِّد من حريته وكرامته؟»[1]، أو بعبارة أخرى : ما الفائدة من الأجساد المطوّعة؟

أما عن ليلى الأخرى (خالد)، فهي تروي في سيرتها ما تنوي أن تفعل بجسدها: «سأحوِّل ذرات جسدي إلى متفجرات، وأنسج فلسطين جديدة من نسيج روحي»[2]. إنهما بذلك تعبرّان عن رغبة النساء الفلسطينيات: إختيار المقاومة بدلاً من الصمت.

فالنساء الفلسطينيات- خاصة في الانتفاضة - كنّ المسؤولات عن المواجهات الجسدية ضد المحتل لتحرير الشباب من أيدي الجنود، ملقيات بأجسادهن على الجنود . وقد تمكنت نساء بيت حانون من تحرير رجالهن بعد أن أحاطتهم قوات الاحتلال في المسجد، فوضعن أجسادهن أمام طلقات النار.

وقد استخدمت الكثير من النساء الفلسطينيات أجسادهن كسلاح فعلي، بتفجيرها، وكما تقول آمال عميرة : «جسد الإنتحارية هو بعيد كل البعد على أن يكون هامداً وغير نشط ينتظر بسلبية المساعدة الخارجية، بل هو ثابت العزم، فتّاك ومتفجر حرفياً، هذا الجسد يخرج من بيته، يعبر الحدود، ويتسرب إلى أراضي الآخر . فهو جسد متلوِّن ومتحرك»[3]. أو بعبارات أخرى، فإن الدور

(١)عن هلا جابر، قصة الغلاف : الانتقاميات، صنداي تايمز ، 7 / 12 / 2003 ،(بالإنجليزية)، على موقع : http: / / www. timesonline. co. uk/ tol/ news/ article1035967. ece تمت زيارة الموقع في20 / 3 / 2009 (.

(٢)ليلى خالد، على شعبي أن يحيا : سيرة ثائرة ، جورج هجار(تحرير) ، على موقع : http: / / www. aktivist. nu/ IMG/ pdf_ MY_ PEOPLE_ SHALL_ LIVE. pdf تمت زيارة الموقع في27 / 5 / 2009 .

(٣)آمال عميرة، عملية اختفاء النساء الفلسطينيات : الانتحاريات بعيون النسويات الغربيات،=

الذي تقوم به الاستشهادية هو دور رافض للدور الذي حدده الخطاب الوطني البطريركي للنساء: مصنع للرجال. رافضاً بذلك أيضاً صورة الاحتلال عن تلك النساء: موقع حربي مستهدف.

في الخطاب الإسرائيلي: «يتم تذكير الجسد المتفجِّر في عملية انتحارية حتى عندما يكون منفذ العملية امرأة». فالمرأة تمنح الصوت لجسدها بتفجيره، آخذة بنصيحة سيكسو لجميع النساء: «جسدك يجب أن يُسمع»[1].

فهل فَنَتْ أجساد الفلسطينيات وتحوّلت إلى رماد/ صمت، أم أنها نمت وتحوّلت إلى متفجرات/ مقاومة؟ تقول إحدى الاستشهاديات المتدربات: «عليّ أن أقول للعالم أجمع، إن لم يكن باستطاعته الدفاع عنا، سندافع نحن عن أنفسنا بالشيء الوحيد الذي نملكه، أجسادنا»!

أتساءل، في النهاية: هل من الممكن إعادة كتابة الجسد؟ إعادة اختراعه وتخيُّله؟ بل هل من الممكن إعادة تجسيد أجساد النساء الفلسطينيات؟ وهل بإمكاننا تحرير أجسادنا مُطلقات بذلك «إنتفاضة الجسد»؟

=الشرق الأوسط الإلكترونية، مجلد5، ربيع2005، على موقع http: / / web. mit. edu/ cis/ www/ mitejmes/ :تمت زيارة الموقع في3 / 2 / 2009 .

(١) سيكسو، مصدر سبق ذكره، ص350 .